تحيّة إلى... قلم مقاتل

كنت لا أزال أبكي سعد الله ونوس وأسترجع ذكرياتي معه ـ حلوها ومرّها* ـ حين تذكّرتُ رسالةً كان قد بعث بها إليّ بعد شهور على «عاصفة الصحراء». وأنا أنقل هنا مقاطع من هذه الرسالة التي انحفرت في ذاكرتي منذ ذلك الوقت، وهو يومٌ يُصادف أحداثاً أليمةً أخرى مرّتْ بوطننا العربيّ من قبل:

«ها قد مرّ عام، ويا له من عام! مَنْ كان يستطيع أن يتنبّأ، حين كنّا معاً في بيروت، وفي مثل هذا الشهر، أنّ العاصفة تنتظرنا، وأننا سنعيش مثلَ هذا العام المثقل بالرعب والأهوال؟! لَمْ يكن أيٌّ منّا متفائلاً، ولكن لم يكن أيٌّ منا يلمّح الى أنّ الهاوية دانية إلى هذا الحدّ، وأننا خلال أسابيع لا أكثر، سنهوي من جديد، وبعنف، إلى قاع آخر من قيعان هزيمتنا التي لم تكتمل بعدُ، ولا يبدو أنها ستكتمل في المدى المنظور».

ويتابع سعدالله: «من آب الماضي، وأنا شبه مشلول. وإذا كنتُ قد استأنفتُ عملي ومشاغلي منذ فترة قصيرة، فلكي أقاوم الموت الشخصي لا أكثر. ولكنْ لا... هناك ما هو أكثر من ذلك. إني غاضب! وإنّي سأقاتل بما تبقّى لديّ من أيام ومن عزيمة. سأقاتل امريكا وطغاتنا وتخلّفنا وغيبيّةَ فكرنا وانحطاطنا. سأقاتل هزيمتنا. سأقاتل نفسي وعناصر الهزيمة في داخلي. إنّ القتال هو مسوّغٌ كاملٌ للحياة. إنّه ليس وسيلة، وليس إجراء لبلوغ غاية. إنّه الغاية. إنّه المعنى الذي يشحن الزمن بالكثافة، ويضفي عليه الدلالة التاريخية. هل قال ديكارت: 'أنا أفكر، إذن أنا موجود'؟ فعلى العربي، وكلّ أبناء العالم الثالث اليتامى أن يصوغوا 'كوجيتَهم' على النحو التالي: 'أنا أقاتل، إذن أنا موجود'. والقتال هنا يتضمن حالة التفكير التي نقلت الإنسانَ من ظلمات العصور الوسطى الى النهضة، ويتضمّن ـ إضافةً إلى ذلك ـ الكيفية التي يمكن أن تنقلنا من وضع الضحيّة الى وضع المقاومة والأمل».

ثم لقيت سعدالله ونوس في عدّة مناسبات تالية، كان منها مناسبة انعقاد مؤتمر أدبيّ في تونس، وحضور سعدالله أعمال لجنة مسرحية دُعي إلى المشاركة فيها. وخرجنا من ذلك اللقاء بعد مناقشة طويلة تعاهدنا في نهايتها، عهداً صامتاً، أن نواصل مسيرتنا النضالية على ساحة الثقافة والأدب.

وفي آخر عام ١٩٩٣، مُنح سعدالله ونوس، بالاشتراك مع حنا مينة، جائزة العويس للرواية والمسرحية، وقد شاركتُ في الاحتفال الذي أقيم في الشارقة بالإمارات العربية المتحدة لتكريم الأديبين العربيين الكبيرين وسواهما ممن مُنحوا هذه الجائزة. وبعد عودة ونوس الى دمشق، بعث لي برسالة قال فيها: «لقد توّجت الجائزةُ نضالاً شاقاً للخروج من نفق الاكتئاب والسوداوية الذي بددتُ فيه سنواتٍ غاليةً من عمري، وأعتقد أني لن أتوقّف بعد اليوم عن العمل والعطاء».

ولم يتوقف سعدالله فعلاً، منذ ذلك اليوم، عن مواصلة عمله الإبداعيّ في المسرح، وقد بدأ ذلك بمسرحية الاغتصاب التي أرفق بها رسالته هذه لتُنشَر المسرحية في دار الآداب (أسوةً بباقي إبداعه) ثم انطلق يتابع إنتاجه حتى أخرج خمس مسرحيات جديدة أخرى تتوّج مسيرةَ حياةٍ من الخلق أجمل تتويج.

ونحن نقدّم هذا العدد الممتاز من الآداب هديةً لروح هذا الفارس، سعدالله ونوس، الذي ظل طوال عدة عقود يقاتل «الطغيان والتخلّف والغيبيّة والانحطاط والهزيمة والموت...»

سهيل ادريس

---

* ـ نشب خلاف مؤسف بين دار الآداب وسعدالله ونوس قبل شهور من وفاته، أدّى الى حصول قطيعة تامة بين الطرفين. ويعود هذا الخلاف الى إعادة ونوس نشرَ كتبه ضمن مجلّدات ثلاثة عن دارٍ غير دار الآداب، خلافاً للاتفاق المبرم بين الطرفين. ومع ذلك فإنّ الآداب لن تنسى أنّ سعدالله ونوس قد كان صديقاً لمؤسسة الآداب منذ أن كان مراسلاً لمجلة الآداب في باريس عام ١٩٦٦، ولا تنسى أنّ ونّوس قد قدم للأدب العربي وللقضية العربية العادلة ما ندر أن قدّمه كاتبٌ عربي معاصر. وإذ تدرك دار الآداب أن ثمة أسباباً موجبةً حدتْ بونّوس إلى قراره (وهي أسباب لم يكن يُمكن الدارَ المذكورة ـ ولا أيّ دارٍ أخرى ـ أن تبرّرها وإنْ كان يمكن أن تفهمها)، فإنها تطوي صفحة الخلاف المرّة بعد أن طوى سعدالله آخر صفحات عمره، وتقدّم لعائلة الراحل الكبير أحرّ التعازي. **(الآداب)**